

مشكلات وقضايا نظرية

الفصل الأول

ما هو النقد الأدبي^(١)

لعله يكون من المنطق أن نتساءل في البداية "ما هو النقد الأدبي؟" بدلا من أن نتساءل: ما هي اتجاهاته؟ وبالرغم من أن كلمة النقد - في لغتنا العربية - كلمة تجرى بكثرة على أقلام الكتاب والباحثين، إلا أن المعنى الاشتقاقي لهذه الكلمة غير بادي الوضوح لأنها تنطوي على دلالة معيارية يرتد بها إلى الفعل الثلاثي فنقول "نقد - نقدا". وقد يكون نقد الشيء - في العربية هي "تمييزها"، والكلمة تعنى الكيفية التى يظهر بها ذلك الشيء، ومن هنا فإننا نتحدث عن نقد الكتب، أى تمييزها، والنظر فيها، لنعرف جيدها من رديئها.

أما في اللغات الأوروبية فأن كلمة Critique مشتقة من الفعل اللاتيني Krinem بمعنى "يفصل" أو يميز. وحين يميز الشيء عن شئ آخر، في تلك اللغات فإن معنى هذا ان الباحث يؤكد وجود شئ يمكن تصنيفه مع نظيره من الأشياء التى لها صفات متشابهة معه بدرجة قليلة أو كثيرة. وهذا يظهر معنى أوليا لكلمة نقد وهو تميز شئ عن نظيره. ويمكننا إذا تتبعنا تطور كلمة "نقد" في القرن السادس عشر، سنجد أنها ظهرت في بادئ الأمر في المجال الفلسفى للدلالة على تصحيح الأخطاء النحوية أو إعادة صياغة كل ما هو ضعيف في المؤلفات الأدبية اليونانية. ثم تطور ذلك المصطلح في القرنين السابع والثامن عشر، واتسعت حدوده حتى شملت وصف وتذوق المؤلفات الأدبية في وقت معا.

(١) يمكن للقارئ أن يرجع إلى مآدر الدراسة في الملحق المشار إليه في نهاية الكتاب.

أما في القرن التاسع عشر، فقد استخدمه عدد من الكتاب والمفكرين بمعنى الحكم أو تفسير الأثر الأدبي أو تذوقه ويمكن أن يشف هذا المعنى من الدراسات التي أجراها "تين" و "برونتيير" وغيرهما من المفكرين الذين اعطوا للنقد طابعا وضعيا نتيجة تأثرهم بمناهج العلوم الطبيعية التي ذاعت في ذلك القرن. فالنظرة السريعة عبر الاتجاهات المختلفة في ذلك القرن كفيلة بأن تطلعنا على أن أغلب المفكرين كانوا على الدوام يستخدمون كلمة "نقد" متأثرة بمنطق العلم الوضعي.

أما في القرن العشرين - حيث تطورت العلوم الإنسانية واللغوية، نجد أنها (أي كلمة نقد)، قد استخدمت من قبل عدد من النقاد بمعنى فهم الأثر الأدبي والبحث في دلالاته ومعانيه.

ولكن من المؤكد أن كلمة "نقد" لا زالت تبدو كلمة غامضة، فهي تستخدم تارة بمعنى معرفة الأثر والحكم عليه أو فهمه، وطورا آخر بمعنى تفسيره. وهذا يعني أن النقاد حينها يقومون بنقد أثر ما، فإنهم لا يتفوقون على المعنى التجريبي الذي يضعه الواقع بين أيدينا وكأن كل ما يهمهم هو الوصول إلى الكشف عن المميزات الأساسية للأثر.

ولنتوقف الآن عند بعض الآراء المختلفة لكلمة نقد لدى جماعة من النقاد، حتى نقف على الدلالة العميقة لهذه الكلمة، التي طالما اختلف النقاد في تعريفها، ولنبدأ بهذا الرأي الذي يقدمه لنا رولان بارت، انطلاقا من مفهوم الأثر نفسه، فهذا الأخير في رأيه يعد بناء رمزيا يتضمن في ثناياه معاني خفية عميقة ومحاولة فهم هذه المعاني يحتم على الناقد ان يكتشف الطبيعة الرمزية للغة وهذا يدخل في مضمار "علم الأدب" أما إذا اقتصر عمله على البحث في احد معاني الأثر فإنه يدخل في مضمار النقد الأدبي. وهذا يعني أن البحث في فهم المعنى الخفي للأثر يعد حجر الزاوية في النقد الأدبي.

وعلى هذا الأساس فإن عمل الناقد يتسم بعده خصائص معينة. أهمها تعقيل الأثر الأدبي تعقيلًا تامًا، أي النظر إليه وإلى وحداته أو عناصره على ضوء مجموعة من المبادئ المنطقية.

ومعنى هذا ان النقد الأدبى له قوانين خاصة لا تجعل منه مجرد جهود نمت فى ظل أسس أو مفاهيم عشوائية. بل هى أسس مترابطة محددة تنظم الأثر على نهج مرسوم، وفقا لعمليات منتظمة خاضعة لقواعد معينة إلا وهى قواعد البنيات الأدبية.

فإذا ما انتقلنا الآن إلى رأى آخر فى النقد، إلا وهو رأى جولدمان، وجدناه يقرر أن النقد الأدبى أولا وقبل كل شئ هو الدراسة العلمية للأثر وهذه الدراسة تنهض على أساس فهم وتفسير الأثر تفسيراً مائلا. ويشرح لنا جولدمان المقصود بالتفسير المائل، فيقول لنا أنه استخلاص المميزات الخاصة للأثر المنبثقة من مجموعة علاقات منطقية مرتبطه بالملاحم العامة للبنيات الكلية للمجتمع.

ومن هنا فإن ما يتميز به الأثر الأدبى هو أنه يبدو لنا على صورة علاقات بين البنيات الداخلية، وبالتالي فهو يوجد فى حالة استقلال عن العناصر الخارجية، انطلاقا من مفهوم بارت. أو يبدو لنا على صورة علاقات بين بنيات داخلية وخارجية فى وقت معا، حسب مفهوم جولدمان.

والواقع أن بارت يريد النظر إلى بنيات الأثر على أنها ظواهر مستقلة لابد من تفسيرها على حدة. بالاستناد إلى عناصرها الجزئية الخاصة، كما يريد مقابلة تلك الظواهر بعضها ببعض من أجل البحث عن أوجه التشابه فيما بينها.

ومن هنا فإن المهمة الاساسية التى تقع على عاتق الناقد إنما هى التصدى لأكثر الظواهر الأدبية شيوعا من أجل التوصل إلى المبدأ أو القانون الذى يحكم منطق العلاقات الداخلية للأثر.

والمهم فى نظر "بارت" هو أن الناقد لا يفهم الأثر الأدبى فهما تجريبيا على مستوى علاقات فعلية، بل هو ينشئها عن طريق النماذج التى تسمح له بفهم الأثر الأدبى فهما بنائيا، وهذا ما عبر عنه فى كتابه "دراسات نقدية" حين كتب يقول: "أن المبدأ الأساسى هنا هو أن مفهوم النقد يجب أن يرتد إلى المفهوم الشكلى وفق مفهومه

المنطقي البنائي، لا مفهومه الجمالي ". فعن طريق ذلك الفهم يمكن للنقاد أن يؤلف نسقا أو نظاما من العناصر الشكلية للأثر. ونحن لا نريد في هذا الموضع الدخول في نقاش المنهج البنائي الشكلي، على نحو ما يفهمه بارت وإنما حسبنا أن نقول أن النقد في نظره نشاط شكلي منطقي يعتمد على أسس خاصة تعمل في البحث عن معنى أو دلالة الرمز الكامن وراء بناء الأثر.

ولو دققنا النظر الآن في التعريفين السالفين للنقد لدى كل من جولدمان وبارت، لوجدنا أنهما يجمعان رغم اختلاف منظور كل منهما على أن النقد ينهض على الالتزام بمبادئ المنطق ومحاولة تعقيل الأثر تعقيلًا تامًا، وهذا يعنى أن الجوهرى في النقد إنما هو اللغة العقلية الدقيقة. ولهذا فإنها يؤكدان الخطأ الذى وقع فيه بعض النقاد حين عرفوا النقد بالاستناد إلى المفاهيم الجمالية المحضه.

أما القاعدة الأساسية في رأى جولدمان، فهي أنه لا يمكن أن يكون ثمة "نقد" إلا حيث توجد لغة علمية. وآية ذلك أننا حين نتحدث مثلاً عن تحليل الأثر تحليلًا علميًا، فإننا نعنى بذلك أن الأثر يتضمن رمزا له دلالات خفية لا يمكن الوصول إليها إلا بالاعتماد على لغة علمية. ومن هنا، فإن أهم ما يميز آراء النقاد، هو أنهم يعترفون بأن لكل أثر لغته الخاصة، إلا وهى لغة الرموز أو العلامات - فيما يقول بارت - الخاصة بمجال ذلك الأثر.

وربما كان أهم ما يمتاز به تعريف بارت، أنه تعريف ينهض على لغة المنطق الرمزي، حيث يحاول إبراز أهم خواص البنيات والعلامات. فالتقدهنا يبدو بمثابة نشاط علمى، يسعى لفهم النظام الذى يسيطر على عناصر الأثر، باعتباره واقعة أنثروبولوجية^(١) لا واقعة تاريخية، وهذا الفهم المنبثق من النزعة البنيوية، يعد من أبرز السمات الهامة التى تعمل على تزويد النقد الأدبى بطابع الدقة والصرامة فى وقت معاً.

(١) واقعة لا تخضع للتغير، ولا تتوافر لها ابعاد تاريخية، أو اجتماعية أو نفسية.

وهنا نجد أنفسنا بإزاء تعريف آخر للنقد يقدمه لنا أحد النقاد والكتاب الفرنسيين المعاصرين، إلا وهو بيير ما شري P.Machery، ويبدأ هذا الناقد في دراسته المسماة "نحو نظرية للإنتاج الأدبي"، بعرض رأى موجز حول النقد ووظيفته يتلخص في أن النقد شكل من أشكال المعرفة العلمية موجه نحو إضاءة وتفسير شروط انتاج الآثار الأدبية. ومهمة الناقد أن يقرأ الأثر قراءة لغوية وفنية ويحدد له مكانا داخل نظام الانتاج الأدبي عن طريق اكتشاف قوانينه اللغوية والفنية معتمدا في ذلك على مفاهيم وفروض علم اللسانيات، ثم يعلق "ماشري" على هذا التعريف فيقول: "إن النقد الأدبي يجعل من الآثار مجالا لبحوثه، وهذا الآثار الأدبية ترتبط ارتباطا وثيقا باللغة، حتى وأن لم تكن تلك الآثار لغة في حد ذاتها."

ومن هنا، فإن الربط بين وظيفة النقد الأدبي، ولغة الأثر يحتل مكان الصدارة في كل تحليل نقدي. وكأن النقد يرى أن مهمته، أصبحت مهمة لغوية، علمية، نظرا لأن أدراك البنية في مجال اللسانيات. قد مد النقد الأدبي بمفاهيم علمية جديدة، مكنته من معالجة بعض مشكلاته النظرية والمنهجية. فالنقد البنائي كما هو معلوم ينصب على النماذج الأدبية التي تم انشاؤها، وهو بذلك لا ينهض على ضوء الواقع الأدبي التجريبي بل على ضوء النماذج الشكلية.

فالنقد البنيوي الشكلي يعطى الصدارة للغة الأثر، وللنماذج الأدبية على الواقع الأدبي التجريبي ويقدم المقولات المورفولوجية الثابتة على المقولات المتغيرة ومن هنا فإن النقد البنيوي الشكلي يبرز بمعنى ما من المعاني، التعارض بين التحليل البنائي الشكلي والتحليل البنائي الدينامي، أو بين ثبات الأثر وتطوره، خصوصا وأن النقد البنائي الدينامي لا يعتمد على مفاهيم ثابتة في نظريته للأثر والواقع التجريبي.

وقصارى القول أن النقد البنيوي الشكلي في تعامله مع الأثر يستهدف تحليل بنياته في حين أن التحليل البنائي الدينامي لا يقتصر على تحليل بنيات الأثر، بل يمتد أيضا إلى ضرب من الدراسة السوسيو تاريخية لبنيات الأثر. ففي نظر الناقد البنائي

الدينامى أن بنيات الأثر الأدبى، فى حركة دائمة، وأن المحرك الحقيقى لتغير بنيات الأثر كامن فى صميم البنيات الاجتماعية والفردية، وفى الظروف التاريخية. هكذا يبدو لنا التعارض بين المنهج البنائى الشكلى الذى يضع دائما التوافق فى مقابل التطور، وبالتالي فإن الأثر الأدبى ليس سوى عناصر من الأشياء يكمل بعضها البعض الآخر.

ومن هنا قد يحق لنا أن نقف قليلا عند تلك التفرقة بين النقد البنائى الشكلى، والنقد البنائى الدينامى (التوليدى)، لنبين كيف أن الاهتمام ببنية الأثر قد دفع النقد البنائى الشكلى إلى التشديد على أهمية الاعتبارات المورفولوجية، بالقياس إلى الاعتبارات التطورية أو التاريخية، ولاشك أن أحد المسؤولين عن هذا الاتجاه فى النقد هو "بارت" حين أعطى الصدارة لبنية الأثر واعتبره (أى الأثر) نمطا بنائيا رمزيا لا يؤدى وظيفته إلا بمقتضى طبيعته الرمزية.

ولو أننا تجاوزنا منطقة الكلمات من أجل فهم النقد بصفة عامة لوجدنا أن النقد الأدبى بأبسط معنى من معانية هو دراسة الأثر الأدبى دراسة تلتزم بمبادئ المنطق، بقصد اكتشاف القواعد أو القوانين التى تحكمه. ولعل هذا ما حدى ببعض النقاد إلى القول بأن كل دراسة نقدية لابد أن تكون علمية، ولو تساءلنا ما الذى يدرسه ذلك العلم؟ لكان الجواب عند "بارت" أحد معانى أو دلالات الأثر. وحين يكون على الناقد أن يختار هذا المعنى أو ذاك، كمنظور علمى من أجل وصف أو تفسير بعض الموضوعات الأدبية العينية، لتكوين وجهة نظر خاصة بصدد مجموعة من الموضوعات فى الواقع الأدبى، فإنه يضطر أن يقوم بصياغة نموذج فى بناءه ذهنى. أما حينما يعتمد على مفهوم البنائية الدينامية (التوليدية)، لا يضطر إلى صياغة نموذج معين نظرا لأنه يدمج بنيات الأثر فى بنيات الواقع.

ولا شك أن المفهوم الأول (البنائى الشكلى) ينظر إلى الأثر الأدبى نظرة استاتيكية، بينما المفهوم الثانى (البنائى الدينامى) ينظر للأثر نظرة تطورية. والذى يهمننا من هذه النظرة أو تلك هو أن تعريف النقد بوصفه علما لابد من أن يقودنا إلى

رفض تلك الانطباعات الوجدانية، التي يدركها الناقد نفسه من خلال قراءة الأثر مع استبعاد كل صور التأثير التي نحصل عليها من معاشتنا لعالم الأثر.

ومن كل ما تقدم يمكننا أن نفهم مغزى قول "بارت"، أن الأثر الأدبي ليس واقعة تاريخية، وإنما واقعة أنثروبولوجية بحكم بنائه الذي يتميز بالانغلاق وبنائطائه على عدد محدد من القواعد".

ولا يبقى لنا في ختام هذا الفصل سوى الاهتمام إلى تعريف والرأى عندنا، أنه على الرغم من تعدد التعريفات التي قدمها النقاد المختلفون لهذا اللفظ، فإنه من الممكن الاجماع على الأخذ بالتعريف الذي قدمه لنا "ماشرى"، في بداية مؤلفه حين قال: "أن النقد نشاط تأملى يسعى لإجلاء القواعد والقانونين المضمرة في الآثار الأدبية" ولا شك أن من مزايا هذا التعريف أنه عام يصدق على جميع الاتجاهات النقدية بما فيها النقد البنائى، والنقد السوسيولوجى والنقد النفسى بإستثناء النقد التفكيكى الذى سنتحدث عنه في موضع آخر من الدراسة.

ولكن النقد البنائى الشكلى - نظرا لأنه قد كان فى اصله ثمرة للنجاح الذى أحرزته علوم اللغة فقد حرص على تأكيد حقيقة أخرى هامة، إلا وهى أنه لا يمكن أن يكون ثمرة أثر إلا حين تكون ثمرة لغة. ولم يكن انتشار النقد البنائى الشكلى فى جامعات أوروبا وأمريكا إلا لاقتناع النقد الاكاديمى بأهمية مفهوم الرمز فى الأثر الأدبى.